مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية Journal of letters and Social Sciences (JLSS)
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/4

الشعر والتصوف وحدود العلاقـة

poetry, mysticism and the limits of the relationship

كنزة بوعبيد[1]
Kenza bouabid
جامعة محمّد لمين دباغين سطيف2، سطيف، الجزائر
Ke.bouabid@univ-setif2.dz

أ.د. سفيان زدادقة
Pr. Sofiane Zdeda
جامعة محمّد لمين دباغين سطيف2، سطيف، الجزائر
sofizdeda@yahoo.fr

ملخص

عُدّ التصوف كأحد أبرز التيارات الفكرية والفلسفية والإبداعية نثرًا وشعرًا في الثقافة الإسلامية والعربية، والتصوف تجربةٌ روحانيةٌ وذوقيةٌ شديدة الخصوصيّة ذات لغةٍ منفردةٍ وملغزةٍ وموحيةٍ تميل إلى الإبهام أحيانًا والاستغلاق لدى القارئ البسيط ،ولعّل هذا راجع بالدرجة الأولى إلى طبيعة التجربة العرفانية ذات الطابع الاستغراقي والاشراقي النازع نحو المطلق واللانهائي، وهو ما أكسبه-أي الخطاب الصوفي- ميزة الفرادة والغرابة أحيانًا، حيث يصبح المتلقي مجبرًا على اكتساب نوعٍ من الخبرة والعلاقة الحميمة مع هذا الخطاب للتقرّب من دلالاته وفكّ شفراته، وقد ارتبط التصوف أول ما ارتبط بالشعر، حيث شاع ما يسمى بالشعر الصوفي ، وقد عُنيّ هذا النوع من الشعر بالحبّ والعشق والهوى ،واتخذّ من هذه المعاني مذهبًا في الحياة ودعا إليها، وهو كغيره من الأنواع الشعرية الأخرى له خصائصه وطرائقه المميّزة له. والشعر والتصوف عالمان معرفيّان متقاربان في نواحٍ، ومتقاطعان في نواحٍ أخرى، فهما يكشفان عن عالمٍ غير قابل للكشف، ويصدران عن رؤيةٍ روحيةٍ حدسية وتجربة وجدانيةٍ خالصة.

معلومات حول المقال
تاريخ الاستلام 23-03-2023
تاريخ القبول 30-11-2023

الكلمات المفتاحية
الشعر
التصوف
الشعر الصوفي
العلاقة
الحدود

مقدمة

اعتُبر التصوف أحد أبرز ملامح الثقافة الإسلامية والعربية، وقد ارتبط هذا الفكر بفنّ الشعر وشاع أكثر ممّا اقترن بفن النثر، حيث شكّل الفن الشعري الصوفي أقوى اتجاهات الأدب العربي التي ظهرت في القرن السابع الهجري، والخطاب الشعري الصوفي هو خطاب لغويٌ ودلاليٌ كغيره من الخطابات الأخرى، إلّا أنّه متميّز بخصوصيّة شديدة وفريدة ،حيث يسمو باللغة إلى مستوى مليءٍ بالإيحاءات والرموز والإشارات، مستوى يجعل من اللغة لغةً غامضةً مبهمةً مستغلقةً على القارئ البسيط، ولعّل هذا راجعٌ بالدرجة الأولى إلى الطبيعة المعقّدة والفلسفية للفكر الصوفي بصفة عامةٍ.

إنّ هذا الترابط الشديد بين التصوف وفنّ الشعر جعل الباحثين في مجال التصوف والشعرية يواجهون أسئلة بخصوص هذه العلاقة، ولعّل أهمّها: ما هي حدود العلاقة بين الشعر والتصوف؟ هل العلاقة بينهما هي علاقة تكامل أم أنهما منفصلان؟ ما هي نقاط التقاطع والتواصل بينهما؟ ما هي الركائز الأساسية التي ينهض عليها كلٌّ من الشعر والتصوف؟ هل الصوفي هو شاعر في الأصل أم أنّه متصوّف عارف عاش التجربة ولم يجد غير القالب الشعري للتعبير عن هذه التجربة؟ وهل الشاعر هو صوفيٌّ بالأصل أم أنّه يستخدم معجم وقاموس المتصوفة موضوعاً لقصيدته؟

1-مفهوم الشعر الصوفي

الشعر الصوفي هو نوعٌ من أنواع الخطابات الشعرية، وهو جنس أدبيٌ ذو مميّزات متفردّة تجعل منه نصّاً مختلفاً مغايرًا عن باقي الأجناس الأخرى، يعرّفه عبد المنعم خفاجي بقوله بأنّه: «أدبٌ وجدانيّ خالص، وهو مذهب رومانسيٌّ حالمٌ، وهو إشراقيّ النزعة، روحيّ الهوى» (خفاجي، د ت)، فالشعر الصوفي شعرٌ يترجم تجربة المتصوف الخاصة ورحلته العرفانية في سبيل حبّ الذات الإلهية والفناء فيها «، فالصوفيون نزعوا في شعرهم نزعةً ذاتيةً عميقةً، فضربوا في عالم

1 المؤلف المراسل

ما بعد الحسّ، وحاولوا أن يصلوا بقلوبهم إلى ما لا يتسنّى للعقل والحواس الوصول إليه» (خفاجي، د ت)،فالشعر الصوفي في طبيعته شعرٌ ذو طابعٍ رومانسي ورؤيةٍ وجدانية خالصة، فهو تعبيرٌ عن تجربة خاصّة يمتلك مفردات وألفاظٍ خاصّة، غايته الحبّ والفناء في الذات الإلهية.

وقد اختّص هذا النوع الأدبي الشعري بكونه شعرًا رمزيّاً بالدرجة الأولى مستعيرًا رموز الشعر العربي القديم (الجاهلي) مثل: رمزية المرأة، رمزية الخمرة، رمزية الطبيعة، مستخدمًا في ذلك معجم التصوف وألفاظ الصوفية ومفرداتهم ومصطلحاتهم المستقاة من عمق التجربة ذاتها وفرادتها اللافتة، ونذكر بعضا من المصطلحات الصوفية مثل: الوجد، الفناء، السكر، الغيبة، الصحو، الحلول، الاتّحاد، الشهود، الحال، المقام، الكشف، وغيرها من ألفاظ المعجم الصوفي.

وقد قسّم المؤرخ عمر فرّوخ مراحل تطّور الشعر الصوفي إلى خمسة مراحل هي (فرّوخ، 1981) :

1-1-المرحلة الأولى

تمتد هذه المرحلة مائة عام، في هذه الفترة كان الشعر الصوفي أبياتاً موجزة وقصائد قصيرة، أهم شعرائها: رابعة العدوية الملقبّة بشهيدة العشق الإلهي، تقول في شعرها:

أحبّك حبّين حبّ الهوى

وحبّ لأنّك أهلٌ لذاك

فأمّا الذي حبّ الهوى

فشغلي بذكرك عمّن سواك

وأما الذي أنت أهلٌ له

فكشفُك لي الحجُب حتى أراك

فلا الحمد لا ولا ذاك لي

ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

(بدوي، 1978)

1-2-المرحلة الثانية

تمتد هذه المرحلة نحو مائتين وخمسين عاما، قد تطور الشعر الصوفي، حيث شهد هذا الشعر بروز عدّة نظريات فلسفية أبرزها نظرية الحلول للحّلاج، وكذلك نظرية الفناء للبسطامي، ومن بين أشعار الحلاج قوله:

عجبتُ منك ومنّي

يا منية المتمنّي

أدنيتني منك حتّى

ظننتُ أنّك أنّي

وغبتُ في الوجد حتى

أفنتني بك عنّي

يا نعمتي في حياتي

وراحتي بعد دفني

مالي بغيرك أُنسٌ

من حيث خوفي وأمني

(الحلاج، د ت)

وقد اتُهّم الحلّاج بالإلحاد والزندقة، وعُدّ شعره كُفرًا صريحًا، فكانت نهايته أن صُلبَ.

1-3-المرحلة الثالثة

تمتّد هذه المرحلة نحو مائتي عام (400هـ600-هـ)، وقد تميّزت هذه المرحلة بوصف الحبّ الإلهي، أشهر شعرائها السهروردي (المقتول)، عبد القادر الجيلاني، من بين أشعار السهروردي قوله:

إذا جنّ ليلي هام قلبي بذكركم

أنوح كما ناح الحمام المطوّق

وفوق سحاب يمطر الهمّ والأسى

وتحتي بحار الأسى تتدفّق

سلوا أمّ عمرو كيف بات أسيرها

تفّك الأسارى دونه وهو موثق

فلا هو مقتول ففي القتل راحةٌ

ولا هو ممنون عليه فيطلق

(الخطيب، د ت)

ومن أبرز شعر عبد القادر الجيلاني قصيدته المشهورة(الغوثية)، يقول فيها:

سقاني الحبّ كاسات الوصال

فقلتُ لخمرتي نحوي تعالي

سعت ومشت لنحوي في كؤوس

فهمتُ بسكرتي بين الموالي

فقلتُ لسائر الأقطاب لمّوا

بحالي وادخلوا أنتم رجالي

أنا الجيلي محي الدّين اسمي

وأعلامي على رأس الجبال

(الجيلاني، د ت)

1-4-المرحلة الرابعة

تمتّد هذه المرحلة من (600هـ700-هـ)، وتميزت هذه المرحلة ببلوغ الشعر الصوفي تطورا كبيرا حيث تعّد هذه المرحلة العصر الذهبي للشعر الصوفي، بلغ درجةً عليا من الرقيّ والجمال، يحمل بين طيّاته منهجا كاملا للتصوف، أبرز أعلامه ابن عربي ، ابن الفارض، أبو مدين التلمساني، ومن شعر ابن عربي قوله:

خليليّ عوجا بالكثيب وعرّجا

على لعلعٍ، واطلب مياه يلملم

فإنّ بها من قد علمت، ومن لهم

صيامي وحجّي واعتماري وموسمي

فلا أنس يومًا بالمحصّب من منى

وبالمنحر الأعلى أمورًا، وزمزم

محصّبهم قلبي لرمي جمارهم

ومنحرُهم نفسي، ومشربهم دمي

(عربي م.، 2003)

أما ابن الفارض الملقّب بسلطان العاشقين، يقول في شعره:

قف بالديّار وحيّ الأربع الدّرسا

ونادها فعساها أن تجيب عسى

وإن أجنّك ليلٌ من توحشّها

فاشْعل من الشوق في ظلمائها قبَسَا

يا هل درى النفر الغادون عن كلفٍ

يبيتُ جُنح الليالي يرقب الغلَسَا

فذو المحاسن لا تحصى محاسنُه

وبارع الأنس لاأعدم به أنسَا

يا جنّةً فارقتها النفسُ مكرهةً

لولا التأسّي بدار الخلد متُّ أسا

(الفارض، 1951)

ويقول أبو مدين التلمساني:

تذلّلتُ في البلدان حين سبيتني

وبتُّ بأوجاع الهوى أتقلّبُ

فلو كان لي قلبان عشتُ بواحدٍ

وأتركُ قلبًا في هواك يتعذّبُ

ولكنّ لي قلبًا تملكّه الهوى

فلا العيشُ يهنى لي ولا الموتُ أقربُ

فيا معشر العشّاق موتوا صبابةً

كما مات بالهجران قيسُ المعذّبُ

(التلمساني، 2011)

1-5-المرحلة الخامسة

في هذه المرحلة تراجع العرب عن موقف وحدة الوجود أو الاتحاد إلى موقف أقّل ثورية وجرأة إلى مدح الرسول والتوسل إلى الذات الإلهية، وأبرز من مثّل هذه المرحلة بامتياز هو أبو حامد الغزالي المعروف ب (حجّة الإسلام)، حيث شاع ما يعرف بالتصوف السنّي.

2-حدود العلاقة بين الشعر والتصوف (اتصال- انفصال)

يعدّ الشعر والتصوف مجالين فكرّيين معرفيّين جدّ متقاربين، فهما متشابهان إلى حدّ كبير، بوصفهما يصدران عن رؤية روحية للعالم ،وهذه الرؤية في جوهرها هي رؤية حدسية إشراقية نورانية لانهائية ومطلقة، فالتصوف هو حدسٌ شعريٌ ومعظم نصوصه شعريةٌ خالصةٌ. (أدونيس، مقدّمة للشعر العربي، 1979)، فالتجربة الصوفية هي تجربة حدسٍ، وهي تجربة شعريةٍ وفلسفة حياةٍ ورؤية جديدة للوجود والإنسان.

إنّ الحدس الصوفي الشعري كما يقول أدونيس: « طريقة حياةٍ وطريقة معرفةٍ في آنٍ بهذا الحدس نتصّل بالحقائق الجوهرية، وبه نشعر أننّا أحرارٌ قادرون بلا نهاية،إنّه يرفع الإنسان إلى ما فوق الإنسان، ونشعر بالارتفاع إلى ما فوق الإنسان أننّا نتخطى الزمن وقيوده ،إنّنا حركةٌ خالصة (أدونيس، مقدّمة للشعر العربي، 1979).

إنّ التصوف من المنظور الأدونيسي هو جانب ذو اتجاهين في آنٍ واحدٍ؛ اتجاه في الحياة واتجاه في المعرفة، وبواسطته نصل إلى الحقيقة الكاملة والحرية وكذا القدرة المطلقة، بحيث يسمو الإنسان فوق الواقع والزمن والمادة.

ومما يُقرن الشعر بالتصوف أيضاً « هو أنّ كلًّا منهما مأخوذٌ بهاجس العمق وارتياد المجهول ،فليس ثمة مستقّرٌ يمكن الركون إليه في هذا الاندفاع المتجدّد الذي يبارح كشوفاته المتحقّقة ويجوزها بقوّة الكشف ذاتها نحو ما لم يتحقق بعد (سليطين، 2013).

فالتصوف والشعر كلاهما يُعنيان بالبحث عن الحقائق

القابعة في الأعماق، والغوص في غياهب المجهول المطلق، كلاهما يبحثان عن منجى من الحياة الواقعية، فالشاعر متمرّد على واقعه المرير، والصوفي يسعى إلى عالمٍ أكثر كمالا ومثاليةً وهو الفناء في الذات الإلهية.

يرى الباحث عاطف جودة نصر» أنّ هناك وشائج قربى تجمع بين التصوف والفنّ بشكل عام وبينه وبين الشعر بشكل خاص، هذه الوشائج تتمثّل في أنّ كليهما يحيلان إلى العاطفة والوجدان (نصر، 1978).

فالخاصيّة المشتركة بين الشعر والتصوف تكمن في كونهما يصدران عن العاطفة والمشاعر ويخاطبان الوجدان والحسّ والشعور.

فالتجربة الشعرية والتجربة الصوفية كلاهما يكشف عن واقع الحياة اليومية وانعكاساتها على نفسية كلٍّ من الشاعر والصوفّي المليئة بالقلق والاغتراب والارتياب والحيرة، وبالتالي فالنص الصوفي والنص الشعري يعتبران مرآة عاكسةً لمعاناتهما وتجاوزا لواقع مرير طغى على حياتهما، وبالتالي فهما في رحلة سعيٍ دائمٍ لتحقيق السعادة الحقيقية الكامنة وراء الحياة المعيشة، « فالصوفي مثل الشاعر لا همّ له إلاّ اكتشاف الحقيقة الكليّة وراء المحسوسات، ولتحقيق تلك الغاية يقوم برحلة لتصفية النفس وترويضها وتهذيبها حتى يكتشف روحه ويكون أهلاً للكشف والمشاهدة والتلقّي» (العوادي، د.ت)

وعن مدى ارتباط التجربتين ببعض هو لجوء الصوفيّة إلى الكتابة الشعرية واتخاذّها المعين الأول الذي يردونه للتعبير عن أسرارهم ومواجيدهم وتأملاتهم، حيث رأوا في القالب الشعري الأداة الأولى للمعرفة الحقّة ووسيلة مثلى للوصول إلى المطلق (أدونيس، د.ت).

لقد كان الشعر هو الوسيلة الأولى والأداة المثلى التي اتخذّها الصوفية قالبًا لتجاربهم العرفانية ورياضاتهم الروحية، فجاءت نصوصهم الصوفية شعرًا، ربّما لأن القصيدة الشعرية هي الأقرب إلى تصوير حقائق الطريق الصوفي وكشوفاته.

وبالتالي فاللغة الصوفية هي لغة شعرية بالدرجة الأولى، وهذه الشعرية تتمثل أساساً في أنّ كل شيء فيها يبدو رمزًا وإيحاءً، إنّ الشاعر والصوفيّ يعبّران بلغةٍ مكثفّةٍ ورمزيةٍ موحيةٍ عماّ هو كامن وضمنّي يصعب البوح به باللغة العادية المألوفة، وكما يحتاج الصوفي للشعر ليصف رحلته الروحية وتجربته الذوقية وطريقه السلوكي العرفاني، كذلك يحتاج الشاعر للمعجم الصوفي ليرقى برؤيته الشعرية وقصيدته إلى مستوى السمو والتميّز، وبالتالي يتحرّر من قفص اللغة المستهلكة المتواترة والمعاني المتكررة ويصبح نصه بهذا قادرا على الخلق والإبداع والتفرّد.

أما الباحث عليّ عشري زايد فيرى أنّ العلاقة بين الشعر والتصوف هي علاقة تشابه وتماثل، ويؤكد أنّ الصلة بين التجربتين تتضّح بالخصوص في أنّ كلاّ منهما (الشاعر والصوفي) يميل إلى الاتحّاد بالوجود والامتزاج به، وحجتّه في ذلك هو أنّ كبار المتصوفين أمثال الحلاج وابن عربي وابن الفارض ورابعة العدوية كانوا متصوفة شعراء، حيث اتخذّوا الشعر كوسيلة للتعبير عن الكثير من تجاربهم، وبالتالي فهناك تشابه بين التجربتين فما يعانيه الشاعر خلال عملية تصوير ما في ذهنه من تساؤلات وأفكار يشبه ما يقوم به الصوفّي خلال عروجه ورحلته الروحية (بوسقطة، 2008).

إنّ العلاقة التشابهية بين الشعر والتصوف تكمن في أنّ كليهما يشتركان في الغاية؛ وهي الهروب من واقعٍ مرير، والسعي إلى الاتحاد بالمطلق والحقيقة والكمال.

ويؤكد أدونيس كذلك عن الرابطة المتينة بين الشعر والتصوف، فالشعر في نظره «رؤيا»، والرؤيا بطبيعتها خارج المفهومات السائدة، وحسب رأيه فإنّ على الشعر أن يأخذ من الصوفية الكشف المستمر والمتواصل، والكفاح ضدّ العقلانية المنطقية الجافة، ورفض التسليم والخضوع بشكل مفروض على أنّه شكلٌ حقيقيٌ ونهائي ومطلق (أدونيس، 1979)

فأدونيس يرى بأنّ الشعر والتصوف وجهان لعملة واحدةٍ، كلٌّ منهما يحتاج الآخر، فالصوفي يلجأ إلى الشعر كقالب شكلي ظاهري، بينما الشاعر يرى في التصوف رمزًا للتحّدي والخروج عن المألوف والسائد الجافّ.

لقد حاول أدونيس دمج العلاقة بين الشعر والتصوف دمجًا معرفيًا، فالشعر لديه نوعٌ من الوحدة التي يبحث فيها عن حلّ التناقضات في الوجود، عن طريق التجاوز والإفلات

من أسر العادي واليومي إلى المطلق واللامحدود (زدادقة، 2008) .

فأدونيس يرى بأنّ الشعر والتصوف يمتلكان خاصيّة موحدّة ومشتركة ألا وهي العبور إلى ما فوق المألوف وخرق الأساليب العادية بحثا عن المطلق واللانهائي.

وهذا الرأي نفسه يؤكده قول الشاعر عبد الوهاب البيّاتي: « أنا لست متصوفًا تقليديًا، لكنّ التصوف يشحذ نفسي ويجعلها قادرة على الاستشراف والحدس والرؤيا (منصور، د.ت).

في إشارة منه على أنّ الفلسفة الصوفية تعدّ مستلهمًا للشعراء ورافدًا ثريًا ومعجمًا غنيًا يستمد منه الشاعر مادته ولغته وأسلوبه ومفرداته لإنشاء نصّه.

ويتحدث البيّاتي كذلك عن العلاقة بين التصوف والشعر فيقول: «إنّ الشاعر يأخذ من المتصوف منهجه في الرؤيا وطريقة الكشف، دون أن يتقيد بأهدافه أو بغاياته، إنّهما يسيران في طريق واحد ولكن كلّ منهما يصل إلى هدف مغاير ومختلف تماما عن هدف الآخر، الأول يبحث عن العدالة في السماء ،والثاني يبحث عن العدالة في الأرض (العشّي، 2009) .

ومن بين أهم نقاط التقاطع بين التصوف والشعر أيضًا أنّ كلا التجربتين لا يستطيع صاحبها الإفصاح عن أسراره وكوامنه والبوح بها، ويكتفي بالإشارة والتلميح فقط، وكذلك تشترك كلا التجربتين في النشوة، فتُدرك الأولى أثناء السكرة الروحية أو الغيبوبة (الغيبة، السكر)، ونشوة الشاعر تدرك أثناء الخلق والابتكار أو ما يسمى بالإلهام (الوحي).

وعن سبب لجوء المتصوفة للشعر يذكر يوسف زيدان في مقدّمة كتابه (شعراء الصوفية المجهولون) أنّ المتصوفة وجدوا في التعبير الشعري ضالتّهم، وهذا نظرًا لما يحمله من طاقاتٍ وإمكاناتٍ إيحائيةٍ وثوبًا فضفاضًا يتسّع لمعاني التصوف الهائلة غير المحدودة، وبهذا فإنّ التصوف يُدرك بحقٍ على نحوٍ أفضلٍ من خلال شعر المتصوفة الذي يعدّ أنسبَ طرائق التعبير عند أهله (زيدان، 1997) .

إنّ يوسف زيدان يؤكد على العلاقة المتكاملة بين التصوف والشعر، وكيف أنّ الصوفية لجأوا إلى القالب الشعري لترجمة أحاسيسهم وأفكارهم وتجاربهم الخاصة الذوقية، باعتبار الشعر الفنّ الوحيد القادر على ترجمة وإيصال تلك العلاقة الروحية بين المتصوّف وربّه للمتلقي، والمعبّر الحقيقي عن السلوك الروحي الذي يعرجه الصوفية خلال مجاهداتهم ورياضاتهم .

ويذهب الشاعر صلاح عبد الصبور في حديثه عن علاقة التصوف بالشعر فيقول: «إذ تقترب التجربة الشعرية من التجربة الصوفية في محاولة كلٍّ منهما الإمساك بالحقيقة ،والوصول الى جوهر الأشياء بغضّ النظر عن ظواهرها ... إنّ كتابة قصيدةٍ هي نوعٌ من الاجتهاد قد يُثاب عليه الشاعر بقصيدة أولا يُثاب كذلك قال الصوفيون إنّ الإنسان يمضي في طريق الصوفية يجتهد ويتعبّد، ولكنه قد لا يهبط عليه شيء وهذا الفتحُ ليس إلّا تنزّلاً من اللّه « (صلاح، تجربتي في الشعر، 1981).

الملاحظ في هذا التصريح لصلاح عبد الصبور هو أنّ عملية خلق القصيدة عند الشاعر تشبه إلى حدّ بعيد رحلة الصوفّي أثناء معراجه كما أوضحها في مراحل ثلاث هي (صلاح، تجربتي في الشعر ، 1981).

2-1-المرحلة الأولى

أن ترد على الشاعر على هيئة وارد (تهيئة الذات، مواجهة الحقيقة).

2-2-المرحلة الثانية

مرحلة العقل، وهي التي تلي الوارد وتنبع منه، وتعرف في لغة الصوفية (التلوين والتمكين).

2-3-المرحلة الثالثة

هي مرحلة العودة، عودة الشاعر إلى حالته العادية بعد ولادة القصيدة الذي أجهد نفسه في تقويمها حتى تم تشكيلها النهائي، وهو سرّها الفنّي.

فصلاح عبد الصبور يبيّن التشابه الكبير بين النص الشعري (القصيدة) وبين النص الصوفي باعتبارهما يتقاطعان في القلق والمعاناة والمخاض العسير، فالغاية الفنية عند الشاعر هي ميلاد القصيدة (النص الشعري)، أما عند الصوفيّ فهي الوصول إلى الحقيقة والسعادة الروحية.

ويمكن إيراد أهّم النقاط المشتركة بين الشعر والتصوف في مسائل هي:

2-4-مسألة الإلهام (الوحي)

لطالما اقترن الشعر عند العرب قديما بما يسمى بالجنّ والشياطين، حيث كان لكلّ شاعر شيطانه الذي يمدّه بالشعر، وهذا ما يؤكد بأنّ قول الشعر كان ذا طقسٍ خاصٍ، ولم يكن متاحاً للعامة، وهذا الارتباط بالجنّ هو صورة من صور الإلهام الذي يعدّ كشفاً باطنيًا أو هو حدسٌ يحصل به العلم للإنسان في حق نفسه، والفكرة نفسها نجدها عند اليونان، وهو ما سمّاه أفلاطون بالإلهام الذي يعتري الشاعر وهو ما يطلق عند الصوفية بالوجد أو حالة النشوة، فحالة التأمل لدى الشاعر تشبه إلى حدّ كبير حالة الفناء عند الصوفي (عربي ا.، 1986).

وعن العلاقة الوطيدة بين الشعر والتصوف يتحدث ابن عربي عن الواردات الإلهية التي يتلقاها المريد أثناء عروجه على سلّم المجاهدات والرياضات الروحية في وارد إلهي يعبّر عن مرتبة من مراتب الوجودية، يقول ابن عربي : «رُفع لك عالم التصوير والتحسين والجمال وما ينبغي أن تكون عليه العقول من الصور المقدسّة والنفوس النباتية من حسن الشكل والنظام وسريان الضوء واللين والرحمة في الموصوفين بها، ومن هذه الحضرة يكون الإمداد للشعراء» (عربي ا.، 1986).

فمن خلال قول ابن عربي يتضّح بأنّ الطريق الذي يسلكه الصوفي بكلّ صوره المقدسة وحسنها وجمالها تعتبر بمثابة إمداد للشعراء باعتبارهم الوحيدون القادرون بتحسسّ الجمال والتغنّي به دون غيرهم. والمتأمل في التجربة الشعرية والتجربة الصوفية يلحظ التشابه الحاصل بين مفردات الشعر ومفردات التصوف نذكر بعضا منه:

المصطلح الشعري	المصطلح الصوفي
يرى رؤى	الرؤى الصوفية
غائبا	الفناء
الاتصّال الروحي	الإتصال الروحي
يفتح بها على	الفتوحات والكشوفات
المكان الخالي، الخلوة	العزلة، الخلوة
حالة، نشوة، غمرة، موجة	الأحوال
يفيض	فيض الأنوار، الإشراق
خيال	خيال

إنّ هذا التشابه بين مفردات الخطاب الشعري وكذلك مفردات الخطاب الصوفي ليس محض الصدفة فالحالة الشعورية التي يعيشها كلّ من الشاعر والصوفي تتقاطع في مستواها الشعوري والإنساني وتتلاقى، فالشاعر لا شك يطمح الى نوع من التسامي فيما يرومه من أفكار، وفيما يختلج في نفسه من مشاعر وأحاسيس متجاوزا بذلك قسوة الواقع وتناقضاته.

يقول الكاتب عدنان حسين العوادي: «الشاعر كالصوفي ‹يسعى لإنهاء نقص العالم›، وعلى هذا فإنّ الصلّة بين التصوف والشعر تنبثق من سعي كلٍّ منهما إلى تصوّر عالمٍ أكثر كمالاً من عالم الواقع، مبعث هذا التصوّر هو الإحساس بفظاعة الواقع وشدّة وطأته على النفس ،وصبوة الروح للتمّاس مع الحقيقة التي تعذّب كياننا، وبنتيجة هذا الإحساس وفي لحظات من تهيؤٍ واستعدادٍ الحواس للتأمل المركّز، يختّل اتزآن الأنا لدى كلٍّ من الشاعر والصوفي، بحيث يغدو السعي إلى التغيير أمرًا لا مناص منه. (العوادي، د.ت).

2-5-مسألة الخيال

لطالما ارتبط الخيال بمختلف المجالات الفنية والإبداعية خاصة الشعر، ولعلّ أصحاب المدرسة الرومانسية كانوا من الذين أعلوا من مكانته، حيث لم يعد العنصر الخيالي مجرد أداةٍ فنيّةٍ لخلق عالم جديد فحسب، بل تحوّل إلى رؤية فلسفية ينبني عليها تصوّر الفرد للحقائق وتمكّنه من الكشف عنها في درجات عمقها القصوى.

أما عند الصوفيين فقد عُدّ الخيال بؤرةً هامةً،إذ «هو الأساس المعرفيُّ للتصور الأنطولوجي، بحيث جعله الصوفية رهانًا استراتيجيًا لبناء الخطاب، فهناك أبعاد وأقاصٍ لا يلمسها إلّا الصوفي لا تدخل تحت العبارة أحيانًا، لأنّ القاعدة جرت بأنّه كلمّا اتسّعت الرؤية ضاقت العبارة كما بيّن النفّري، وهي قاعدة تفسّر كيف وقع أهل الشطح في مأزق اللغة والخيال في علاقتهما بشرك التداول (زايد، 2011).

إلّا أنّ بين الشعراء والمتصوفة فرق في بيان وظيفة الخيال، فالشعراء يستندون إلى العقل باعتباره مصدر الحقيقة، أما الصوفية فهو يستندون إلى الخيال باعتباره منبع التصوّر قبل العقل، يقول ابن عربي مبيّنًا أهمية الخيال في التصور الصوفي العرفاني في كتابه الفتوحات المكيّة:

«ما أوجد الله أعظم من الخيال منزلةً ولا أعّم حكمًا، يسري حكمه في جميع الموجودات والمعدومات، من محالٍ وغيره، فليس للقدرة الإلهية فيما أوجدته أعظم وجودا من الخيال، فيه ظهرت القدرة الإلهية والاقتدار الإلهي، وبه كتب على نفسه الرحمة... (عربي ا.، د ت) .

فالمعنى الجذري الذي يؤسسه ابن عربي للخيال، يبدأ من فهمه الدقيق للنفس الإنسانية ومعرفته لقدراتها غير المحدودة ، ومن كونها – قبل كلّ شيء – مخلوقة على الصورة الإلهية المبدعة، وتبعًا لذلك فإنّ الإنسان مبدع بالضرورة ، ولكن بفضل الخيال الذي وهبه الله إياه .

يقول أحد الباحثين في هذا الشأن: ‹› والحقّ أنّ المتصوفة هم الذين منحوا الخيال أسمى ما يمكن أن يناله من قداسةٍ وتقديرٍ طوال عصور الفكر العربي، إنّ الخيال عندهم يساعد في الكشف عن نوع مهم من المعرفة، وينير الطريق لإدراك طائفة من الحقائق المتعالية التي لا يصل إليها العقل الصارم (زدادقة، 2011).

هذه الأهمية العظيمة للخيال في العرفان الصوفي لا تقلّ أهمية منها في النصوص الإبداعية الفنيّة خاصة الشعرية منها، فقد أعطى الشعراء للخيال المكانّة الهامة للخيال تعمل على كشف المعاني الكامنة في النفس الإنسانية فضلا عمّا في الوجود من أسرار غامضة يقف العقل البشري منها عاجزًا على إدراك أغوارها فكان الخيال بهذا المفتاح السرّي القادر على فضّ مغاليق النفس وكذلك الوجود. يقول الشاعر كولردج في هذه المسألة :» إنّ الخيال تتعلق فاعليته في إذابة الأشياء وتفكيكها من أجل إعادة خلقها من جديد وبصيغةٍ مبتكرةٍ. (عودة، 2008)

فالفنّ بصفة عامة وخاصة الشعر منه يعتمد على العنصر الخيالي بصورة كبيرة في إنتاج نصوصه الإبداعية، وله دور فعّال في جمالية الخطابات الشعرية وأدبيتها، ولأنّ كان الخيال عند أغلب الشعراء مقروناً بجانب وحيد ومحدود هو (الشعر)، فإنّه عند المتصوفة أوسع وأشمل دائرة ،حيث ارتبط بصورة عامة بالوجود ،وهذا ما يؤكد عمق التجربة الصوفية وشموليتها.

2-6-مسألة اللغة والرمز

لئن كان الإلهام والوحي والحدس وكذلك عنصر الخيال عوامل مركزية تربط الشعر بالتصوف وتجعلهما متقاربين إلى حدّ ما ،فإنّ اللغة الرمزية هي الأخرى لا تقل أهميةً في إبراز هذا التشابه بين المجالين، ففي الشعر نجد عند أصحاب المدرسة الرمزية استعمالهم للرمز بصورة لافتة (المجاز التشبيه الاستعارة ...)، وقد كان سبب استعمالهم للرمز هو قصور وفشل القاموس المتداول في ترجمة ما يختلج في صدورهم وأحاسيسهم ، وعجز اللغة العادية في التعبير عن ما يدور في بواطنهم، فكان الترميز والتلميح والإشارة متنفسهم الوحيد في ترجمة ما يدور في بواطنهم.

إنّ قيمة الشعر بالنسبة للشاعر الرمزي تكمن في قدرته على الإيحاء والتلميح بما عاناه وكابده من معاناة وانفعالات، أما الوصف والتقرير فهما قالبان تقليدان جاهزان ولا شأن للشعر بهما، يقول بول فاليري: «... من الخطأ المضّاد لطبيعة الشعر بل القاتل له أن نتطلب من كلّ قصيدة أن يكون لها معنى واقعي واحد ووحيد هو صورة طبق الأصل من فكرة ما لدى الشاعر (فتوح، د ت).

ولعّل غاية الشعراء الرمزيين هي» إقحام أفكار واسعة النطاق في الشعر تعبّر عن أعمق ما يكمن في النفس الإنسانية وفي اللاوعي الباطني، وأن يترجموا ترجمة إيحائية فنيّة تلك الاهتزازات التي تثور في أعماق الكائن عند احتكاكه بمظاهر الوجود ومحسوساته (سلمان، 1954).

هذه الرؤية ذات الطابع الاشاري والرمزي هي نفسها نجدها عند الصوفيين عندما يمارسون طقوسهم ومجاهداتهم الروحية، بحيث يسعون في تجربتهم الذوقية إلى ترجمة ما يختلج في نفوسهم عن طريق الرمز والإشارات والإيماء غيرةً منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها.

إنّ قصور اللغة الوضعية وعجزها عن الإيفاء في التعبير عن التجربة لدى كلّ من الشاعر والصوفي جعل اللغة الترميزية الملجأ الوحيد لهم باعتبارها لغة ذوقٍ ووجدانٍ وحدسٍ وإلهامٍ، وتكون اللغة في هاتين التجربتين (الشعرية الفنية والصوفية الذوقية) لغة ذات طابعٍ خاصٍ تثير الدهشة والتوتر وتصدم القارئ والمتلقي.

نستطيع القول بأنّ الشاعر الرمزي والشاعر الصوفي يلتقيان على صعيد النزعة الذاتية والاتجاه الوجداني،

ففي كليهما تعطّشٌ وشغفٌ إلى الانطلاق نحو ما هو لا واقعي ومطلق، يسمو بالنفس الإنسانية إلى الكمال والمثالية، وفي كلتا التجربتين يظهر الصراع بين الوهم والحقيقة، بين العالم السفلي والعالم العلوي،إلّا أنّ الرمز ومدلوله يختلف بين الشاعر والصوفي، فالشاعر غرضه الأول والأخير فنّيٌ، بينما الصوفي هدفه كتم تجربته الروحية وعدم البوح بها خوفًا أو غيرةً ،ولعّل هذا راجع إلى طبيعة التجربة الصوفية وشدّة خصوصيتها، والتي تعّد « بمثابة البنية العميقة التي تتغلغل في أحشائها ذاتية الصوفّي الذائبة في شرايين الاحتراق، والصوفيّون أنفسهم قد لوّحوا إلى هذه الحالة، التي لا يمكن التعبير عنها بحروف العبارة لضيقها، وحدود نفسها، فكانت الإشارة الفضاء الموعود ... (أحمد، 2001).

إنّ اللغة الشعرية واللغة الصوفية، هي لغة حدسٍ وكشفٍ في آنٍ، هي لغة برزخية منفتحة على كل الاحتمالات والتأويلات، لغة متعددة الدلالات، منفتحة على كل الآفاق، تتجاوز وتخترق كل ما هو سائد ومألوف ومادّي، لتصبح لغةً متحدة بالمطلق واللامحدود والحقيقة.

وبهذا تلتقي الكتابة الشعرية مع نظيرتها الصوفية في كون أنّ كليهما لا تستجيب للتأسيس النسقي الذي تتحكم به الروابط النظامية والعلاقات المنطقية، ومن شأن الكتابة التي تنحو هذا المنحى أن تخلّف على المستوى الطبوغرافي فجواتٍ نصيّةٍ، هي المواضع التي يقيم فيها المختلف، متدثرا بصمته وانقطاعه عن الثرثرة الكلامية (سليطين، 2013) .

على اختلاف معظم النقاد والباحثين الذين أجمعوا على الترابط والتمازج القوّي بين التصوف والشعر،وبين الركائز التي يقوم عليها كلا الفنيّين الأدبيين، يذهب الشاعر والناقد العراقي عادل عبد الله إلى القول برأي مختلف تماما ،حيث ينفي نفيًا قاطعًا وجود ذلك الوصل بين التصوف والشعر، ويدّلل على الخاصيّة الشديدة التي يتميّز بها كلّ من الشعر والتصوف حيث يقول: «أنّ التصوف لا يصلح أن يكون موضوعًا للقصيدة التي يُراد لها أن تنقل تجربة الصوفي بكلّ غرابتها وجلالها ، ما لم يعش الشاعر وعلى مدى طويل تفاصيل وأسرار وآثار تجربة التصوف في حقيقتها العرفانية العميقة الحافية... وللشعر أو القصيدة أسراره وخصوصياته التي لا تسمح ولا تمنح نفسها إلّا للشاعر (عادل، 23-11-2015).

وبهذا فلكلٍّ من الشعر والتصوف أدواته تجعلهما متضادّين ومختلفين في كلّ من : المهمة والوظيفة والأداة والرسالة، وكذلك نوع العلاقة مع الذات من جهة أخرى ،ومع الآخر من جهة أخرى، يقول عادل عبد الله: «إنّ الشاعر يسيء إلى الصوفي في قصدية اتّخاذه المعرفة الصوفية مضمونًا لقصيدته، تمامًا كما يسيء الصوفي إلى الشاعر حين ينظم تعاليمه في قصيدة ،لأنّ هذه التعاليم الحرّة الخاصة به وحده والمستحصلة من فضاء التجربة والحريّة والتأمل تضطّر إلى الدخول في العالم الضيّق للحواس والشكل واللغة (عادل، 23-11-2015).

في إشارة منه إلى ضرورة الفصل بين التجربتين الصوفية والشعرية، حيث يؤكد على أنّ الشعر ونظم القصائد لا يكون إلاّ من شاعرٍ حقيقيٍّ، شاعر خُلق ليقول شعرًا فقط، أمّا المتصوف فإنّه عاش تجربة التصوف ومعاناتها بكلّ مراحلها فاستعان بالقصيدة كوسيلة فقط، ولم تكن كتابة الشعر هدفًا له بالأساس لعدم امتلاكه موهبة الشاعر الفذّ.

مناقشة

نخلص في نهاية هذا المقال إلى عدة نتائج أهمها: أنّ التصوف هو تجربة ذوقية وعرفانية خاصّة جدّا ،أمّا الشعر فهو تجربة شعورية تعتمد الحس والوجدان، تلتقي التجربة الصوفية والتجربة الشعرية في كون أنّ التصوف وجد في القول الشعري الوسيلة المثلى للتعبير عن تجاربه وما يدور في دواخله وخلجاته، أمّا الشعراء فقد اعتمدوا قاموس المتصوفة وألفاظه لإثراء قصائدهم وإكسابها جمالية ملفتة وتميّزا فريدًا وهذا لا يدّل أنّ كلّ متصوف هو شاعر بالضرورة أو العكس، فهما يختلفان ويتقاطعان في الهدف والغاية فغاية الصوفي هي المحبة الإلهية والفناء فيها، بينما الهدف الأول والأخير عند الشاعر فنّي(خلق قصيدة) ذات بُعد جمالي أدبّي.

وأخيرًا نستطيع القول أنّ العلاقة بين التصوف والشعر هي علاقة اتصالٍ وانفصال في آنٍ؛ اتصّالٌ في اللغة وانفصالٌ في التجربة.

المراجع

1. إبراهيم محمد منصور. (د.ت). الشعر والتصوف (الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر). دار الأمين للنشر والتوزيع.
2. ابن الفارض. (1951). الديوان. القاهرة: مكتبة القاهرة.
3. ابن عربي ابن عربي. (1986). الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار. القاهرة: مكتبة عالم الفكر.
4. ابن عربي. (د ت). الفتوحات المكيّة. بيروت: دار الكتب العلمية .
5. أبي مدين شعيب الغوث التلمساني. (2011). الديوان. لبنان: كتّاب ناشرون.
6. أحمد الطريبق احمد. (2001). الخطاب وخطاب الحقيقة (مبحث في لغة الإشارة). الدار البيضاء.
7. أحمد محمد فتوح. (د ت). الرمز والرمزية في الشعر المعاصر. مصر: دار المعارف.
8. أدونيس. (د.ت). الصوفية والسريالية. دار الساقي للنشر .
9. أدونيس. (1979). مقدّمة للشعر العربي. بيروت: دار العودة.
10. الحلاج. (د ت). الديوان.
11. أمين يوسف عودة. (2008). تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية. الأردن: عالم الكتب الحديث.
12. سفيان زدادقة. (2008). الحقيقة والسراب (قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة). الجزائر: منشورات الإختلاف.
13. سفيان زدادقة. (2011). الرمز ودلالته في الشعرية الصوفية(متوالية الصورة ، المجاز، الخيال، الأسطورة). الجزائر: مجلة الآداب والعلوم الإجتماعية.
14. عادل عبد اللّه. (23-11-2015). الشعر والتصوف (تكامل أم ممانعة). الحوار المتمدن.
15. عبد الرحمن بدوي. (1978). شهيدة العشق الإلهي. الكويت: وكالة المطبوعات.
16. عبد الصبور صلاح. (1981). تجربتي في الشعر .
17. عبد الصبور صلاح. (1981). تجربتي في الشعر. مجلة فصول المجلدّ 2، العدد 1.
18. عبد القادر الجيلاني. (د ت). الديوان. بيروت: دار الجيل.
19. عبد اللّه العشّي. (2009). أسئلة الشعرية. الجزائر: منشورات الاختلاف.
20. عدنان حسين العوادي. (د.ت). الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي. دار الرشيد للنشر.
21. عليّ الخطيب. (د ت). اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي. القاهرة: دار المعارف .
22. عمر فرّوخ. (1981). التصوف في الإسلام. بيروت: دار الكتاب العربي.
23. محمد زايد. (2011). أدبية النص الصوفي بين الإبلاغ النفعي. الأردن: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع.
24. محمد عبد المنعم خفاجي. (د ت). الأدب في التراث الصوفي. مكتبة غريب.
25. محي الدين ابن عربي. (2003). ترجمان الأشواق. بيروت: دار صادر.
26. نور سلمان. (1954). معالم الرمزية في الشعر العربي رسالة مقدّمة لنيل شهادة أستاذ العلوم . بيروت: الجامعة الأمريكية.
27. وفيق سليطين. (2013). الشعر والتصوف. سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع.
28. يوسف زيدان. (1997). شعراء الصوفية المجهولون. بيروت: دار الجيل.

poetry, mysticism and the limits of the relationship

Abstract

Count Sufism as one of the most important intellectual, philosophical and creative currents in prose and poetry in Islamic and Arabic culture, Sufism is a very special spirituality and taste experience with a unique, enigmatic and suggestive language at times it is ambiguous and not understood by the simple reader, This may be due mainly to the nature of the mystical experience of an immersive and oriental nature that tends towards the absolute and the infinite, This made-sufi discourse- it unique and strange .where the recipient becomes forced to a kind of experience and intimacy with this discourse in order to approach its connotations and decipher its codes .these mianings are a doctrine in life and he called for it ,and it ,like other poetic genres ,has its own characteristics and methods that distinguish it. Poetry and Sufism are two congnitive worlds that are close in some ways and intersecting in other ways, they reveal an undetectable world and emerge from an intuitive spiritual vision and pure emotional experience.

Keywords
poetry
sufism
sufi poetry
relationship
borders

Poésie, mysticisme et les limites de la relation

Résumé

le soufisme est concédéré comme l'un des courants intellectuels philosophiques et créatifs les plus importants en prose et en poésie dans la culture islamique et arabe, Le soufisme est une expérience spiritualité et gustative très spéciale avec un langage uniques, énigmatiques et suggestif parfois il est ambigu et non compris par le simple lecteur, Cela peut être dû principalement à la nature de l'expérience soufie d'une nature immersive et orientale qui tend vers l'absolu et l'infini, Cela le rendait unique et étrangeté. Le soufisme a d'abord été associé à la poésie, Où la soi-disant poésie soufie a été popularisée. Poésie et soufisme deux mondes savants proches en aspects, et se croisent à d'autres aspects, ils révèlent un monde indétectable. Ou le destinataire est contraint d'acquérir une sorte d'expérience et d'intimité avec ce discours pour en approcher les connotations et en décrypter les codes. Ces significations sont une doctrine dans la vie et il l'appelait, et elle, comme d'autre genres poétiques, a sa raison d'être. Propres caractéristiques et méthodes qui le distinquent. La poésie et le soufisme sont deux mondes cognitifs proches sous certains aspects et se croisant sous d'autres aspects, ils révèlent un monde indétectable et émergent d'une vision spirituelle intuitive et d'une pure expérience émotionnelle.

Mots clés
la poésie
soufisme
poésie soufi
relation
les limites

Competing interests

The author(s) declare no competing interests

تضارب المصالح

يعلن المؤلف (المؤلفون) لا تضارب في المصالح

Author copyright and License agreement

Articles published in the Journal of letters and Social Sciences are published under the Creative Commons of the journal›s copyright. All articles are issued under the CC BY NC 4.0 Creative Commons Open Access License).
To see a copy of this license, visit:
http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/
This license allows the maximum reuse of open access research materials. Thus, users are free to copy, transmit, distribute and adapt (remix) the contributions published in this journal, even for commercial purposes; Provided that the contributions used are credited to their authors, in accordance with a recognized method of writing references.

© The Author(s) 2023

حقوق المؤلف واذن الترخيص

إن المقالات التي تنشر في المجلة تنشر بموجب المشاع الإبداعي بحقوق النشر التي تملكها مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية. ويتم إصدار كل المقالات بموجب ترخيص الوصول المفتوح المشاع الإبداعي CC BY NC 4.0.
للاطلاع على نسخة من هذا الترخيص، يمكنكم زيارة الموقع الموالي :
http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/
إن هذا الترخيص يسمح بإعادة استخدام المواد البحثية المفتوحة الوصول إلى الحد الأقصى. وبالتالي، فإن المعنيين بالاستفادة أحرار في نسخ ونقل وتوزيع وتكييف (إعادة خلط) المساهمات المنشورة في هذه المجلة، وهذا حتى لأغراض تجارية؛ بشرط أن يتم نسب المساهمات المستخدمة من طرفهم إلى مؤلفي هذه المساهمات، وهذا وفقًا لطريقة من الطرق المعترف بها في كتابة المراجع.

© المؤلف (المؤلفون) 2023

قسم المقالات باللغات الاجنبية